

في الحاجة إلى توافق الدين والعلم زمن الأوبئة: قراءة في آفاق التكامل

"The need for harmony between religion and science during pandemics: A look at the prospects for integration"

سفيان حامدي^{*}

soufien.hamdi11@gmail.com (تونس) جامعة الزيتونة

تاريخ النشر: 2025/12/30

تاريخ القبول: 2025/10/12

تاريخ الاستلام: 2025/06/16

Abstract:

In this work, we aim to research the duality of religion and science, an important topic that is considered one of the concerns of human thought, and the title of our research is "Toward Reconstructing the Relationship between Religion and Science in the Time of the Pandemic."

In these papers, I will try to prove three points that I consider very important: that religion has a psychological function that enhances human immunity during the epidemic, that religion in its attitudes and purposes stands in support of science in the face of epidemics, and that epidemics throughout history have proven that the relationship between religion and science is of great good and cosmic benefit to humanity, and that the epidemics throughout history have proven that the interrelationship between religion and science is very important.

Keywords: Religion ;Pandemic ;Science ; Harmony ;Islam.

الملخص:

تتناكب هذه المطارحة على تحليل العلاقة الجدلية بين الدين والعلم في سياق الأوبئة، ساعية إلى استجلاء ما تنطوي عليه هذه الثنائية من تعالقٍ وظيفي ينهض على التكامل لا التضاد..

وتتجه المهمة في هذا الجهد إلى إثبات ثلاث فرضيات جوهرية: أولها، أن للدين وظيفةً نفسيةً تُعززُ مناعة الفرد والجماعة زمنَ المحنة، بما يوفره من سكينٍ روحيٍّ وتوازنٍ وجدائيٍّ. ثانيها، أن المقاصد الشرعية تُشكّلُ داعماً معرفياً للعلم في مواجهة الأزمات الصحية، عبر التوفيق بين الوحي والكشوفات العقلانية. ثالثها، أن التجربة الإنسانية التاريخية تُبرز أنماطاً من التآزر بين الدين والعلم في مواجهة الأوبئة، بما يُشير إلى إمكانية بلورة نموذجٍ تشاركيٍّ يخدم المصالح الإنسانية المشتركة.

وهكذا، يهدفُ عملنا إلى البحث في إمكان إعادة بناء هذه العلاقة على أسسٍ تُجاوز الثنائيات التقليدية، وتستند إلى قراءةٍ مقاصديةٍ تفتح على حكمة التراث، وتستبصر متطلبات الواقع المعاصر.

الكلمات المفتاحية: الدين؛ العلم؛ الوباء؛ التوافق؛ الإسلام.

* سفيان حامدي .

مقدمة

لكثُر ما علت الصّيحات منذ زمن بعيد بأنّ بين الدّين والعلم نزاعًا، وأنّ في سجيّة الدّين أشياء تخالف طبيعة العلم، وأنّ العلوم منذرة بخراب الأديان. ولم يبرح العلم والدّين قائمين على قدر النزاع، ولم ينقطع بينهما صراع يريد به كلّ منهما أن يصيب الآخر في مقتل -لا أن يغلبه فحسب-.

وإنّما يصدق هذا التنازع على بعض الديانات المحرّفة والأنساق العقديّة البشريّة التي لم تكن تنظر إلى العلم إلا برية وشكّ، وهو ما لا ينطبق على الإسلام الذي أسّس منذ بداياته لعلاقة تكامل لا خصومة فيها بين الوحي والعقل، وبين المنبر والقلم.

ومع ذلك، فلم يكن مجدياً أن تحاول الأصوات الدّينية -في بعض السياقات التاريخية- إخفاء بريق الفكر حين تهيأ لها الحول والطّول وأحكمت قبضتها على سيفي الرّوح والزّمن على حدّ السّواء، وقد توجّج الفشل جهود المتزمتين من رجال الدّين في اضطهاد العلم وجندلة أهله.

وفي المقابل، لم يكن مجدياً أن يعلن صوت العلم عن "موت الإله" وفناء الأديان، حين هبّت فيه الصّحوة وواتاه الرّشد زمن التحرّر من القيود الدّينية. فكان الخسران هو المصير المحتوم للجهود التي أنفقتها تلك المذاهب العلميّة في عرقلة مضيّ الدّين قدما وجعله أثرا بعد عين.

وهو ما فتح المجال في الفكر الغربي لتصورات علمانية متطرفة، لم تلبث أن أفرزت مأزقا وجوديا وقيميّا أقرّ به حتى بعض رموزها.

وهذا التّنافر بين الأصوات المتخاصمة، وعدم قدرة كلا الطّرفين على القضاء على الآخر، يجعلان أهل الحياء في حيرة وإحباط. وقد وصل الوضع ببعض العقلاء إلى محصّلة مؤدّاها ضرورة الاختيار بين المذهبين المتباعدين، فإمّا العقل وإمّا الدّين، بالرّغم من أنّ أيّا منهما قد لا يوفّر الرّاحة، في ظلّ خيبة الأمل المتجدّدة لكلا وجهتي النّظر.

لكنّ هذا الخيار الثنائيّ يبقى حبيس الإطار الفلسفي الغربي، إذ لا يستقيم في التّصوّر الإسلامي الذي ينهض على التكامل بين العقل والوحي، لا التنازع بينهما.

وفي السّنوات الأخيرة، لم يكن متوقّعا أن يطفو موضوع الدّين والعلم من جديد على السّطح بالقوّة التي شهدتها السّاحات الأكاديمية، لولا تفشّي جائحة كورونا وتداعياتها العميقة على العالم بأسره. فلقد عادت المطارحة من جديد. ولكن هذه المرّة استجلبتها حالة الهوان والعجز التي شهدتها العالم في مواجهة الوباء، ووهلة ارتفاع الوعي الإنسانيّ ليلغ لحظة إدراك مؤدّاها أنّ الإنسان -في زمن التّهايات- في حاجة إلى الدّين والعلم على حدّ السّواء.

لا من منطلق نفعيّ ظرفيّ، بل في إطار وعي بضرورة تكامل المرجعيتين في صياغة مستقبل إنسانيّ أكثر توازنا

وعدالة.

"والعلم من دون دين أعرج والدين من دون علم أعمى"، كما يقول العالم الألماني ألبرت آينشتاين، وهي مقولة تعبر عن مأزق التجربة الغربية، لا عن طبيعة التصور الإسلامي، الذي لا يفصل بين نور الوحي وهداية العقل. ولذلك فإنّ السؤال المركزي لهذا العمل هو: في ضوء التصور الإسلامي للعلاقة بين الدين والعلم، وفي ظلّ المآسي الإنسانية والتداعيات العالمية لوباء كورونا، هل يمكن في ضوء التجربة الإنسانية زمن الأوبئة، ووفق التصور الإسلامي المتكامل، استئناف علاقة توافقية بين الدين والعلم، لا على قاعدة الصراع بل في أفق التكامل؟

1. وظيفة الدين النفسية زمن الأوبئة

يقول الكاتب والمؤرخ البريطاني غاي إيتان "يصعب على مَنْ صبّ كل اهتمامه على الواقع الظاهري الكبير لهذا العالم، أن يتقبّل حقيقة أن هذا الواقع قد يختفي في أية لحظة مثل نفثة دخان، وسوف يحدث هذا في لحظة ما" (رواسخ، 2022، صفحة 23).

ويقول عالم الاجتماع السوري علي أسعد وطفة: "لقد أتى فيروس "كورونا"، ليُشكّل صدمة توقظ الإنسان من سكرته الحضارية، ليهزم غروره الحضاري، ويستحضر عجزه الكبير إزاء المصير المستقبلي الغامض" (وطفة، 2020، صفحة 89).

وهذان القولان يتوافقان مع الرؤية الدينية لضعف الإنسان الفطري من جهة، وعجز أدواته المعرفية والحضارية عن الإحاطة بكل شيء من جهة أخرى؛ حتى إن فيروسا صغيرا لا يُرى بعين هذا الإنسان كان قادرا على حصد أرواح مئات الآلاف من بني جنسه، بينما تقف الأيدي عاجزة عن ردعه واستئصال الخوف الذي خيم به على العالم (سامح، 2020).

وقد كشفت جائحة كورونا عن هشاشة البنية النفسية والروحية لإنسان اليوم، إذ سيطر الهلع وتراجعت المعنويات وتصدّعت المناعة النفسية.

هنا كان تدخل الدين في غاية الأهمية، حيث تمكّن من تمتين الطاقة الروحية، وتقديم منظومة قيمية وسلوكية، إذ حرّم الفساد وإهلاك النفس، وحثّ على مُصالحة القدر حفاظا على السلام الداخلي، ودعا إلى التخلص من الخوف، كما شجّع على الصبر والتفاؤل، والحفاظ على الصلابة الروحية.

وفي الحقيقة، فقد تصرفت السلطات الدينية في العالم على وجه العموم ببراعماتية ومسؤولية كبيرتين، وامثلت الواقع النفسي ومعطيات الخوف التي أنتجها هذا الوباء وانطلقت من النصوص الدينية لرفع المعنويات وزرع التفاؤل وترميم الأنفس، فجاءت مواقفهم معبرة عن المقاصد الروحية في الإسلام كما في المسيحية واليهودية.

وهذا العلاج الروحي قد لا يستهدف المرض أو الوباء مباشرة، بقدر ما يسعى إلى تأسيس أرضية علاجية واضحة المعالم تقوم أساسا على العقائد الدينية والقيم الإيمانية (القيم، صفحة 40) .

ففي الوقت الذي لا يجد فيه الكثيرون مهريا من الأسباب، يوجد الدين في قلوب الناس شيئا من الطمأنينة بأن شيئا في ملك الله لن يكون إلا بإذنه وبأثته لن يصيب القوم إلا ما كتب الله لهم (رواسخ، صفحة 28).

ولأن الوباء لم يكن دقيقا في انتقاء ضحاياه وربما ضرب المذنبين والأبرياء والأغنياء والفقراء والمؤمنين ومن دونهم بالقسوة نفسها، فإن النصوص الدينية في الأديان السماوية تخبرنا أن السكينة الإلهية تنزل على الذين آمنوا. كما جاء في القرآن الكريم في سورة التوبة: "ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ" (التوبة، آية 26)

كما ورد في العهد الجديد في الكتاب المقدس في إنجيل متى: "تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتْعَبِينَ وَالثَّقِيلِي الْأَحْمَالِ، وَأَنَا أُرِيحُكُمْ" (متى 11-28)

ومن دواعم الأمل الصحي في السنة النبوية، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله عز وجل أنزل الداء والدواء، وجعل لكل داء دواء، فتداووا ولا تداووا بحرام" (البخاري، 2014).

وهذا أصل عظيم في الجمع بين صوت العقل والأخذ بالأسباب، وأمل وبشرى للإنسانية، فرفع الأمل والتوكل على الله قيمة كبرى في حياة المؤمنين تتوجه به القلوب إلى الخالق في مختلف الظروف والأحوال وخاصة في أوقات الشدائد والحن، يستمدون منه العون والتوفيق؛ لزوال الغمة، وانكشاف الكربة، ويأخذون بالأسباب التي تعينهم في ذلك.

كما أن للدين وظيفة نفسية عظيمة في قدرته على إعادة تشكيل أفزع لحظات السقوط الإنساني وتحويلها إلى أمتع لحظات العلو فقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن المرض يحو به الله الذنوب وتحط به خطايا الإنسان "كما تحط الشجرة ورقها" أو كما جاء في حديث عبد الله ابن مسعود.

ومعلوم أن المريض إذا صبر على مرضه نال أجرا كبيرا من الله عز وجل فقد قال خير من قائل في كتابه العزيز: "وَكَلَبُوا كُفْرًا شَيْءٌ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ" (البقرة ، الآيات: 155-157).

وبالإضافة إلى المرض، فإن الدين يحول مصيبة الموت إلى أمر إيجابي وإمكانية للخلاص بالمفهوم المسيحي وتحقيق المفازة في الحياة الأخروية بالمفهوم الإسلامي.

الأمر الذي يمثل لحظة إدراك عظيمة مكنت من تصالح الإنسان الفاني مع الفناء الذي كُتب عليه، بل أضفت على الحياة معنى وغاية وقيمة كان الموت سيجردها منها. كما أن هذا الإدراك — كما ورد في كتاب الخوف السائل

لزوغمونت باومان- يخلص الإنسان من الخوف ويعزز حصانته النفسية حيث يحوّل القوة التدميرية لأصعب اللحظات وللموت إلى قوّة عظيمة معززة للحياة، ويجعل من الموت حصانا يقود عربة الحياة، كما يجعل من الخلود ممكنا في الحياة، ويضع الإنسان الفاني الذي يدرك أنه فان في مركز قيادة الخلود (باومان، 2017، صفحة 61)

إذا استجلى المرء هذه الجوانب، تبين له أنّ الدين - بوصفه نظاماً قيمياً روحياً - قد أدار ظهره للانحزام النفسي زمنّ الوباء، فشكّل حائط صدّ منيعاً ضدّ الذعر الوجودي الذي أفرزته الجائحة. ولم يكن ذلك مجرد وعظٍ عابر، بل منهجاً متكاملًا يؤسّس لمناعة نفسية تستمدّ مقوماتها من اليقين بالمشيئة الإلهية، والصبر على القضاء، وتحويل المحنة إلى منحة عبر تطهير الذنوب. وهكذا، بينما كان العلم يخوض معركة الجسد ضدّ الفيروس، كان الدين يخوض معركة الروح ضدّ الوهن واليأس. وهذا التكامل بين البعدين المادي والمعنوي يُجسّد حكمة إلهية أرادت للإنسان أن يواجه الأزمات بكل أدواته: عقلاً يُدع، وقلباً يتوكّل. فالدين - في المحصلة - لم يكن ملاذاً للضعفاء، بل كان سلاح الأقوياء الذين أدركوا أن مواجهة الوباء تتطلب شجاعة الجسد وثبات الروح معاً.

3- الدين سنداً للعلم في مواجهة الأوبئة:

لقد عرف الاتجاه الديني السوي بحكمة أهله ورجاحة عقولهم في الأزمات وفي المنعطفات التاريخية، فكانوا على درجة عالية من الوعي بمظاهر الخطر الذي أفرزته جائحة كورونا، واستطاعوا أن يوظفوا الخطاب العقلاني الرزين واستفادوا في ذلك من تجارب السابقين، ودعوا إلى تنحية الخلافات السياسية والإيديولوجية جانبا، أو على الأقل تأجيلها لوقت لاحق.

وفي زمن "الكوفيد" ظهر الدين حليفاً أميناً للعلم في مساره الإيجابي، تحديداً للتخفيف من عذابات الناس، والعمل من أجل نفعهم وسعادتهم.

وأكدت السلطات الدينية على ضرورة الإصغاء إلى أصوات الطب والعلم الحديث، فجاءت خطاباتها في أغلب الأحيان متسمة بالعقلانية، باثة الوعي بالجوانب الأخلاقية في زمن الأوبئة على غرار قيم الأمل والتسامح والإيثار والتكاتف والتآزر. والعمل على حماية الصالح العام وتأصيل مقومات وجوده مطالبة: "بالانصياع لقرارات الدولة وعقلها الأمني والاجتماعي والاقتصادي والصحي" (وظفة، 2020، صفحة 31)

وقد سائر الدين الإسلامي في إجراءاته الوقائية والعلاجية زمن الأوبئة إجراءات الطب الحديث، وبالعودة إلى السنة النبوية نجد أنّ أول من أرسى إجراءات الحجر الصحي، هو الرسول الكريم، إذ كان الأكثر حرصاً على أرواح الناس وصحتهم، وذلك عندما أمر الناس بملازمة منازلهم وبلادهم في حال تفشى فيها وباء مثل الطاعون. وليس أدلّ على ذلك من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه عن النبي . الله عليه وسلم: "إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها

وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها" (البخاري، صفحة 449).

فالنهي عن الخروج من الأرض الموبوءة يمثل إجراءً صحياً وقائياً لجأ إليه المسلمون في أوبئة سابقة وسائرهم في ذلك أهل زمانهم من أطباء وعامة، كما أنّ منع الدخول إلى الأرض الموبوءة يعدّ إجراءً وقائياً محققاً للقاعدة الدينية " لا ضرر ولا ضرار" (أحمد، 1990، صفحة 23).

وبالإضافة إلى الحجر الصحي أيدت السلطات الدينية إجراء غسل اليدين للوقاية من نقل العدوى؛ ويعتبر غسل الأيدي جزءاً من العبادة في الإسلام، وليس عادة فقط، فغسل اليدين من فرائض الوضوء الذي لا تصح الصلاة إلّا به، كما أنّ بعض الطوائف المسيحية توجب على الكهنة والشماسة غسل اليدين قبل القداس الأمر الذي يفسّر أحواض الوضوء في أغلب الكنائس التقليدية.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ غسل اليدين بغية الدخول في العبادة إجراءً أجمعت عليه العديد من الحضارات القديمة حيث تؤكد لنا النقوش والرسومات الموجودة على جدران المعابد والقبور الفرعونية أنّ المصريين القدماء كانوا يولون الاهتمام بغسل اليدين والجسم، وقد أخبر المؤرخ الإغريقي هيرودوت أن المصريين القدماء: " كانوا يغتسلون بشكل منتظم وكان الكهنة يخلقون رؤوسهم وأجسامهم جيداً تجنباً لظهور أية حشرات" (حسين، صفحة 81).

وقد حثّ التوجيه النبوي بدوره على غسل اليدين قبل الأكل وبعد الجماع وقبل إدخال اليدين في الإناء وقبل النوم وفي حالات أخرى ونهى عن النجس والقذارة (صبيح، 1971، صفحة 09).

وقد ورد عن منظمة الصحة العالمية في الاعتبارات المتعلقة بما ينبغي اتخاذه من تدابير الصحة العمومية في مكان العمل في سياق كوفيد تسعة عشر، أن أول إجراء من الإجراءات الوقائية هو نظافة اليدين حيث أرشدت إلى " غسل اليدين بانتظام غسلاً شاملاً، قبل بدء العمل وقبل تناول الطعام، وأكثر من مرة أثناء نوبة العمل" (العالمية، 2020، صفحة 03).

أيضاً هناك مسألة جدّ مهمة سائرت فيها السلطات الدينية الجهود الطبية تمثلت في طرائق تغسيل وتكفين ودفن الأموات في زمن الكوفيد، حيث أصدرت لجان الإفتاء في الكثير من الدول فتاوي مفصّلة في التعامل حول هذه المسائل. ففيمّا يتعلّق بتغسيل المتوفّي بهذا الوباء، تقرّر تغسيله بصبّ الماء عليه من بعيد، مع أخذ الاحتياطات اللازمة للمشرفين على عمليات التغسيل والموصى بها من قبل أطباء البلد، فإن تعذّر ذلك يمْ، وإلّا دُفن دون تغسيل، إن تعذّر ذلك دفعاً لانتقال العدوة.

أما في ما يتعلّق بالتكفين فإنّ دور الإفتاء على وجه الإجمال أكدت على تحريّ التكفين بالكفن الشرعيّ إن تيسّر ذلك، فإن تعذّر: " فيلّف ثوب على ثيابه التي مات فيها إن تيسّر، وإلا فكفنه ثيابه التي توفّي فيها.

أما الصلاة عليه فهي من فروض الكفاية التي إذا قام بها بعض القوم سقط وجوبها عن البقية، كما اعتبرت عديد اللجان أنّ الأيسر والأأنفع لمصالح البلاد والعباد في زمن كورونا يدفن المسلم في المكان الذي مات فيه.

بعد هذا المسار التحليلي، يتجلى لنا بجلاء أنّ الدين - حين يحتفظُ بجوهره الحكيم ويتحرّر من الجمود - يكون حليف استراتيجي للعلم، لا خصم له. فقد أثبتت الأزمة الوبائية أنّ التعاليم الدينية الأصيلة، بمرونتها المقاصدية، قادرة على توفير إطارٍ قيميّ يعزّز فعالية الإجراءات العلمية، ويُضفي عليها مشروعية مجتمعية. ولم يكن هذا التعاون صدفةً عابرة بل كان تجسيداً عميقاً لما أرساه النصّ الديني من قواعد ذهبية كـ "لا ضرر ولا ضرار" و "الحفاظ على النفس". وهكذا، بينما كان العلم يخطو خطواته المخبرية، كان الدين يمهّد الطريق نفسياً واجتماعياً لقبولها. وإنّ هذا التكامل الوجودي لُيْنِي بِإمكانية بناء نموذج إنسانيّ متكامل فيه المنظومتان: العقلانية العلمية والحكمة الدينية، خاصة في مواجهة التحديات العالمية المشتركة. فالدين - عندما يُفهم فهمًا مستنيرًا - ليس سدًا منيعًا أمام التقدم، بل حارسًا أمينًا لإنسانية الإنسان في زحف الحضارة المادية.

4- التعلق بين الدين والعلم فيه خير كثير للناس:

شكّلت أزمة كورونا فرصة علمية ومحكًا تاريخيًا نادرا لدراسة تحولات ومفاهيم جديدة كانت غائبة عن الأذهان على الأقل في العصر الراهن، وفي طليعتها موقع كل من العلم والدين ومدى إمكانية تفعيل علاقة توافقية بينهما أو على الأقل دحض المقولة -المغلوطه- القائلة بأنّ الدين والعلم لا يلتقيان أبداً.

ويرى أينشتاين كما أشرنا في بداية العمل أنه لا يوجد ما يسمى بالتنازع بين العلم والدين، وعلى هذا فهو يعتبر أنّ العلم من دون الدين واهن صغير الهمة، والدين من دون العلم كليل البصيرة يتخبط في الظلام (اينشتاين، 1986، صفحة 253).

وتجدر الإشارة هنا إلى كون العالم الألماني قد انطلق من منظومة الأخلاق اليهودية والمسيحية المستمدة من العهدين القديم والجديد ليصل إلى بناء علاقة توافقية بين الدين والعلم وهو القائل في هذا الصدد: "يقدم لنا التقليد اليهودي والمسيحي أسمى المبادئ لأمانينا وأحكامنا، وهو هدف في غاية السمو قد لا نبلغه بما أوتينا من قوى ضعيفة إلا بصورة ناقصة..." (اينشتاين، صفحة 247).

ويتعجب أينشتاين من الذين يزعمون أن هناك تصادماً بين العلم والدين، فمجال الدين هو غير مجال العلم، فمجال الدين هو القيم، وهو يسعى إلى تربية الجنس البشري وتوجيهه بمجموعة من القيم السامية، مما يعني أنّ مجال الدين يعالج تقييم الفكر والأعمال البشرية، أمّا مجال العلم فهو مجال الحقائق والعلاقات التي ترتبط ببعضها البعض، غير أنّ التصادم يحدث في اللحظة التي يتدخل فيها المحراب في مجال المختبر أو العكس. إذ أنّ إقحام الدين في قضايا علمية

محضة قد يضّرّ به ولا ينفعه، ويقامر بصورته في عالم تجريبي يتغيّر من وقت لآخر، كما أنّ النظريّات العلميّة والحجج الطبيّة إنّما مكانها المختبرات والمجالات العلميّة، حيث تخضع للتشريح والنقد، ولا تتعدى كونها احتمالا إلى أن يتم إثباتها عبر سنوات من العمل والمتابعة (بورحلة، 2014).

وعلى العكس من ذلك فهو يرى أنّ هناك تعالقا بين المجالين، فلا يمكن في نظره أن يكون العلم بنسقه الجاف والجامد قادرا على الوصول إلى المعرفة دون أن يكون هذا النسق مشبعا بقيم عليا، حيث إنّ كل الوسائل تبقى عقيمة عاجزة ما لم يكن وراءها روح حيّة تدفعها وتحركها (ريزنك، 2005، صفحة 87).

وقد أثبتت تجربة كورونا رجاحة هذا القول في بعض جوانبه فكان من أزمت العلم أنّه قد أفلت زمن الجائحة من سيطرة العلماء والباحثين؛ بل استثمرت فيه الدولة ثم المجتمع، وأتى فيما بعد إلحاح المصانع ومؤسسات الإنتاج الطبيّ، فطغى عامل الإنتاج والربح على عامل العقل والأخلاق، فحضرت الروح التنافسيّة التي تدمر كلّ الشعور بالإخاء والتعاون الإنساني.

فمنذ الوهلة الأولى لتحول الأزمة الصحيّة إلى جائحة عالميّة سادت الاتّهامات والخلافات السياسية فالولايات المتحدة الأمريكيّة تبنّت خطابا قويّا ضد الصين لصلوعها في انتشار فيروس كورونا وكان الرئيس الأمريكي دونالد ترامب يصرّ على وصف الوباء بالفيروس الصيني.

وفي سياق متصل اجتاحت أزمة قيم غير مسبقة الاتحاد الأوروبي فقد استخدمت عدة دول أعضاء تعبير "حالة الحرب الشاملة" في مواجهة تفشي فيروس كورونا، وفي سابقة خطيرة قامت التشيك بمصادرة شحنات مساعدات طبية كانت متوجّهة إلى إيطاليا، أما ألمانيا فقد منعت تصدير المستلزمات الطبيّة وقامت عدّة دول أوروبية بهذا الإجراء (سامي، 2021، صفحة 52).

وأفلت العلم من سيطرة العلماء والباحثين أيضا عندما تحوّل البحث عن لقاح للكوفيد إلى حرب اقتصادية استثمارية بين الدول العظمى فمع بداية الأزمة بدأت العديد من الدول في استنفار أجهزتها للبحث عن لقاح ممكن للفيروس، غير أنّ هذا البحث في أحيان كثيرة كان يحمل في طياته أبعاد سياسية ففي سبتمبر ألفين وعشرين أعلنت روسيا أنّها قد توصّلت أخيرا إلى اكتشاف لقاح كورونا وتبيّن فيما بعد أنّه خطاب سياسي حتى أنّ اللقاح المزعوم لم يستوف أغلب الشروط العلميّة.

أيضا، نشطت البروباغاندا السياسية الأمريكيّة المعتادة في حرب الأدوية بشكل كبير عندما روج الرئيس الأمريكي دونالد ترامب لعقار "هيدروكسي كلوروكين" الخاص بعلاج الملاريا، كلقاح للكوفيد، واتّضحت بعد ذلك نتائجه الكارثيّة حتى منع الأطباء استعماله.

وعن مثال آخر حيّ عن استخدام العلم الأعمى والمجرّد من القيم في غير صالح الإنسانية أنّه وتزامنا مع ما نحن فيه يرتفع عداد الموتى في فلسطين بنسق رهيب بواسطة أدوات حرية هي منتهى العلوم الحربية الحديثة.

وفي الطرف المقابل لم تكن السلطات الدينية عن منأى من بعض الأخطاء التي وجدت لنفسها مكانا زمن الأوبئة، حيث نشطت الإيديولوجيات الدينية بشكل لافت زمن الوباء ومن المفارقات العجيبة أن بعض المتزمتين من رجال الدين قد رحبوا بحلول الوباء ودعوا إلى تعجيل انتشاره، إذ يرون فيه إرادة الإله وهم لا يرون في الحقيقة وسط الرؤية بقدر ما يعلنون نهاية أفكارهم.

ولعله من الحزن القول أنه في عالمنا العربي علت بعض الأصوات على قلّتها ونادت بفتح المساجد وممارسة الشعائر الدينية والدعاء الجماعي في الساحات العامة.

كلّ هذا وغيره، أدى إلى بروز تيارات أدركت خطورة ما نحن ذاهبون إليه بالعلم الأعمى، فنادت بالتمسك بالبعد الروحي للعلم، معلنة أنّ العلم محتاج إلى الشعور الأخلاقي الكوني الذي هو أقوى وأنبّل الحوافز على البحث العلمي، وعندما يتمسك العالم بالقيم وتلك القوّة الروحية يصبح العلم أكثر نبلا، وهنا يبدو إمكان تفعيل العلاقة بين الدين والعلم في شركة تؤدي إلى خير كثير. فلو أنّ القوّة التي يعطينا إياها العلم تستعمل في الأغراض التي يحددها الدين لأدى ذلك إلى عمل الدين والعلم معا لسعادة الإنسان وفي خدمة الله.

وهكذا، يتبيّن أنّ الفصل الصارم بين الدين والعلم لم يكن سوى وهمٍ غدّته صراعات الأيديولوجيا، بينما تكشف الأزمات الكبرى، كجائحة كوفيد-19، عن الحاجة الماسّة إلى صيغة تكاملية يتساند فيها العقل والروح، ويهتدي فيها البحث العلمي ببوصلة القيم الأخلاقية. فالعلم إذا ما تُرك وحيداً دون مرجعية معنوية، قد يتحوّل إلى أداة استثمار أو صراع، كما أن الدين إذا جُرّد من معطيات الواقع ومنهج العقل ومقاصده الحقّة، يقع فريسة للجمود والتأويل المتعسف. ومن ثمّ، فإنّ التعالق بين الدين والعلم ليس فقط ممكناً، بل هو الأساس الذي نزلت به رسالة "إقرأ" على الرسول صلى الله عليه وسلم وهو ضرورياً لبناء إنسان متوازن، وعالم أكثر عدلاً ورحمة.

5 - الخاتمة:

وفي خاتمة هذا العمل نخلص إلى مجموعة من الاستنتاجات أهمّها:

- السلطات الدينية في العالم على وجه العموم تعاملت ببراغمية ومسؤولية كبيرتين، في مواجهة جائحة كورونا.
- لا يوجد ما يسمى بالصدام بين العلم النبيل والدين الحقّ انما الصدام بين العلم والإيديولوجيات الدينية المتطرفة والتي تتصادم أصلاً مع جوهر الديانات على اختلافها.
- العلم من دون دين أعرج والدين من دون علم أعمى "البرت انشتين"

- التصور الإسلامي، الذي يؤمن بوحدة الحقيقة وتكامل مصادر المعرفة، يتيح فضاءً رحباً لفهم هذه العلاقة وتفعيلها، بما يجعل من الدين داعماً ومسانداً للعلم، والعلم مدخلاً لتفعيل تعاليم الدين بما يخدم الإنسان ويحقق مصالحه. وعليه، فإنّ البحث المستمر في هذه العلاقة من منظور إسلامي منهجي، يفتح آفاقاً جديدة لفهم الدور الحقيقي للدين والعلم في خدمة الإنسان والحفاظ على كرامته، خصوصاً في أوقات الأوبئة والأزمات العالمية.

6- مراجع البحث:

1. أبو عبد الله محمد البخاري. (2014). الجامع الصحيح، المسند المختصر (الإصدار 2). سوريا : مؤسسة الرسالة ناشرون.
2. أبو عبد الله محمد البخاري. (بلا تاريخ). الجامع المسند الصحيح المختصر (المجلد 2).
3. أسعد علي وطفة. (2020). أوهام المقدس ومطلقاته في زمن الأوبئة: ما بين الدين والإيديولوجية الدينية في مواجهة كورونا. الكويت: جامعة الكويت.
4. أسعد علي وطفة. (2020). أوهام المقدس ومطلقاته في زمن الأوبئة، ما بين الدين والإيديولوجية الدينية في مواجهة كورونا. الكويت: جامعة الكويت.
5. ألبرت اينشتاين. (1986). أفكار وآراء. (رئيس شحاتة، المترجمون) مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
6. المازني صبحي. (1971). تاريخ الطب والأطباء المسلمين. دار الكتب العلمية.
7. بونيف محمد سامي. (أفريل، 2021). الأمن الدولي في ظل الأزمة الصحية، معطيات الصراع و التعاون دراسة حالة كوفيد 19. مجلة المفكر للدراسات القانونية و السياسية، 1، صفحة 52.
8. دقيل حسين. (بلا تاريخ). حكايات فرعونية (الإصدار 81). مصر : بيلومانيا للنشر و التوزيع.
9. ديفيد ريزنيك. (2005). أخلاقيات العلم. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون و الآداب.
10. ريجمونت باومان. (2017). الخوف السائل (الإصدار 1). (حجاج أبو جبر، المترجمون) لبنان: الشبكة العربية للأبحاث و النشر .
11. زين الدين عبد الرحمن ابن أحمد. (1990). القاعدة الذهبية في المعاملات الإسلامية لا ضرر و لا ضرار (الإصدار 1). دار الكتاب العربي.
12. شمس الدين بن محمد ابن القيم. (بلا تاريخ). الطب النبوي. دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع.
13. عودة سامح. (25 ديسمبر، 2020). فقدان السيطرة، هل أعاد مركزية الدين في القضاء على الخوف . (مركز نقد وتنوير للدراسات الإنسانية) تاريخ الاسترداد 03 مارس، 2024

14. مركز رواسخ. (2022). كورونا انكسار الغرور و بقضة الوعي. الكويت: رواسخ.
15. مركز رواسخ. (بلا تاريخ). كورونا انكسار الغرور و يقضة الوعي.
16. منظمة الصحة العالمية. (2020). الاعتبارات المتعلقة بما ينبغي اتخاذه من تدابير الصحة العمومية و التدابير الاجتماعية في مكان العمل في سياق كوفيد 19.
17. نوال بورحلة. (جوان , 2014). علاقة الإيمان بالعلم عند ألبرت أينشتاين. الأكاديمية للدراسات الاجتماعية و الانسانية، 12.

